

شرح كلمة (خُلِّقَ) الواردة في القرآن الكريم في ضوء كلام العرب والأحاديث النبوية

- د. أورك زيب الأعظمي¹

وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن الكريم؛ مرة في سورة الشعراء بمناسبة ردّ قوم عاد على هود الذي نصّحهم ومنعهم عن التكذيب. ينقل القرآن، فيما يلي، نصيحة هود وردّ عاد على هذه النصيحة:

"إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾". (سورة الشعراء)

ومرة أخرى جاءت هذه الكلمة في سورة القلم التي عزّى فيها الله سبحانه رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما اتهمه قومه بكونه مجنوناً وضالاً عن الطريق السوي:

"ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾". (سورة القلم)

وقبل أن أتحدث عن المعنى المراد في كلا الموضعين أرى من المناسب أن أتبع استخداماً في كلام العرب وأحاديث النبي العربي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيبدو من تبع استخدام هذه الكلمة في كلام العرب والأحاديث النبوية أنها جاءت لمعانٍ تالية:

1. ما مارسه الناس من العادة: وهذا المعنى ينقسم إلى دالتين: (1) السجية العالية، (2) السجية عالية كانت أو سافلة. فلمعنى الثاني شواهد كثيرة حتى

¹ مدير تحرير "مجلة الهند" وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

نجد كلَّ صفحة من دواوين الشعر العربي الكلاسيكي مليئة به. تدلّ على هذا المعنى صفة الكلمة التي تتبعها مثل "طاهر" و"كريم" و"عَفَّ" و"غَدَفَل" (واسع) و"جزل" و"فاحش" و"أفقم" (أعوج) و"مُزَّق" (ردئ) و"مُدْغَدَغ" (مغمور في الحسب) وغيرها من الصفات أو إضافتها إلى صاحبها الكريم أو الفاجر مثل "خُلِقَ المُسيءُ المفسد".

وأما كونها عادة حسنة فيشير إليها مجيئها صفة لأيّ عادة أو بدون صفة في مكان السجاياء العالية المفتخر بها مثل "شيمة خلق" وغيره من الشواهد التي سنذكرها فيما يلي.

فلنعنى الأول قول الأعشى الكبير التالي:

والصبرُ منه قديمًا شِمةٌ خُلِقُ وزنْدُه في الوفاء الثاقبُ الواري¹
وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

كلّ ما ذلك مني خُلِقُ وبكلّ أنا في الروع جدير²
وقال ابن قيس الرقيات:

إني لأخلي لها الفراش إذا قَصَّعَ في حضنِ عرسه الفرقُ
من غيرِ بغضٍ لها لديّ ولـ كن ذاك مني بـجِيةٍ خُلِقُ³
وقال برج بن مسهر الطائي:

كهابةٍ شارِفٍ كانتَ لشيخٍ له خُلِقُ يحاذره الغريم⁴

¹ ديوانه، 425/2

² شعره، ص 117

³ ديوانه، ص 80

⁴ شرح ديوان الحماسة، 770/2

وأما شواهد المعنى الثاني فيقول الأعشى الكبير في مدح حبيبه:

عبرهُ الخلقُ بلاخية تشوبه بالخلق الطاهر¹

وقال الشاعر الهذلي البريق:

أروع التي لا تخاف الطلا ق، والمرء ذا الخلق الأفقم²

فأتركها تبتغي قيماً وأقضي بصاحبها مغرمي³

وقال زهير بن أبي سلمى:

حزماً وبراً للاله وشيمة تعفو، على خلق المسيء المفسد⁴

وقال زهير أيضاً:

بل اذكرن خير قيسٍ كلها حسباً وخيرها نائلاً وخيرها خلقاً⁵

وقال يمدح هرمًا:

إن تلق يوماً على علاته هرمًا تلق السماحة منه والندی خلقاً⁶

وقال عمرو بن معديكرب:

تمتعتُ ذاك وكنت امرءاً أصد عن الخلق الفاحش⁷

¹ ديوانه، ص 344

² الأفقم: الأعوج

³ ديوان الهذليين، 57/3

⁴ ديوانه، ص 47

⁵ ديوانه، ص 76

⁶ ديوانه، ص 77

⁷ ديوان الأصمعيات، ص 178

وقال ذو الإصبع العدواني:

لي ابن عمّ على ما كان من خُلُقٍ مختلفان أقليه ويقليني¹
وقال عمرو بن معديكرب أيضاً:

تمتعتُ ذاك وكنتُ امرئاً أصدُّ عن الخُلُقِ الفاحش²
وقال أوس بن حجر:

هي ابنةُ أعراقٍ كرامٍ نمينها إلى خُلُقٍ عَفٍّ برازته قَدَّ³
وقال روبة بن العجاج:

ولا أحبُّ الخُلُقَ الممدّقا
والغرَّ مغرور وإنَّ تلهوقاً⁴

وله ما يلي:

ما كنتُ من تكرم الأعراض
والخُلُقِ العَفِّ عن الأقضاض⁵

وله أيضاً:

والعبدُ عبدُ الخُلُقِ المدغدغ
كالفقيع إنَّ يهمزُّ بوطء يُثْلَغُ⁶

¹ ديوان المفضليات، ص 163

² شعره، ص 135

³ ديوانه، ص 26

⁴ ديوانه 172/1 والممدّق هو الرديء من الأخلاق.

⁵ ديوانه، 376/1

⁶ ديوانه، 60/2

وله أيضاً:

تَعَمَّداً بِالْخُلُقِ الْغَدْفُلِ¹

وله:

بَاعَدَ عَنْكَ الْعَيْبَ وَالتَّدْنِيسَا
ضَرَحَ الشَّمْسَ الْخُلُقَ الضَّبْبِيسَا²

وقال أبو صخر الهذلي:

فَأَيْسَرُ مَا أَبْدَى بَلِيلِي كَوَجْدَهَا سَوَى أَنْبَى أَبْدَى لَهَا خُلُقًا جَزَلًا³

وقال مسكين الدارمي:

حَسْبُكَ مِنْ تَحْصِينِهَا ضَمُّهَا مِنْكَ إِلَى خُلُقِي كَرِيمٍ وَدِينٍ⁴

وقال الفرزدق:

أَلَا تَذْكُرُونَ الرِّحْمَ أَوْ تُقْرِضُونِي لَكُمْ خُلُقًا مِنْ وَاسِعِ الْحَمِّ مَا جَدٍ⁵

وقال جرير:

أَلَا تَذْكُرُونَ الرِّحْمَ أَوْ تُقْرِضُونِي لَكُمْ خُلُقًا مِنْ وَاسِعِ الْخُلُقِ وَاجِدٍ

لَكُمْ مِثْلُ كَفِّي خَالِدٍ حَيْثُ يَشْتَرِي بِكُلِّ طَرِيفٍ كُلِّ حَمْدٍ وَتَالِدٍ⁶

¹ ديوانه، 342/2 والغدفل هو الواسع

² ديوانه، 234/3 والضبيس هو العسر المخالف.

³ شعراء أمويون، ص 101

⁴ ديوانه، ص 67

⁵ ديوانه، ص 123

⁶ ديوانه، ص 139

وقال طفيل الغنوي:

إنّ النساء كأشجارٍ نبتنَ معاً منها المرار، وبعضُ المرّ مأكول
إنّ النساء متى ينهنّ عن خُلُقٍ فإنه واجبٌ لا بدّ مفعول¹

وقال عروة بن أذينة:

لقد علمتُ وما الإسراف من خُلُقِي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعنيّني تطلّبه ولو قعدتُ أتاني لا يُعنيّني²

وقال قيس بن عاصم المنقري:

إني امرؤ لا يعتري خُلُقِي دنسٌ يفنّده ولا أفن³

وقال شاعر حماسي:

ومن يقترف خُلُقًا سوى خُلُقِ نفسه يدعه وترجعه إليّ الرواجع⁴

وقال رجل من آل حرب:

باتت تلوم وتلحاني على خُلُقٍ عودته عادةً والجودُ تعويد⁵

وقال يزيد بن الجهم الهلالي:

لقد أمرتُ بالبخل أمّ محمد فقلتُ لها: حُيّي على البخل أحمد
فإني امرؤ عودتُ نفسي عادةً: خُلُق وكلّ امرئ جارٍ على ما تعودا⁶

¹ ديوانه، ص 82

² شرح ديوان الحماسة، 779/2

³ المصدر نفسه، 938/2

⁴ المصدر نفسه، 994/2

⁵ المصدر نفسه، 1006/2

⁶ المصدر نفسه، 1012/2

وقال شاعر حماسي:

إني وإن لم ينل مالي مدى خلقي فيأض ما ملكت كفاي من مال¹
وكان معاوية بن أبي سفيان ينشد كثيراً ما يلي:

قد عشت في الناس أطواراً على خلقي شتي، وقاسيت فيها اللين والفظعا
كلأ بلوت فلا النعماء تبطني ولا تخشعت من مكروهة جزعا
لا يملأ الهول صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا²
وجاء في الأحاديث: "قالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: "خلقٌ حسنٌ".³ وإن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياة".⁴ ومن أفضل الأعمال: --- "وحسن خلق".⁵ وقالت عائشة: "ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب".⁶ وقالت عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً بالأسواق، ولا يُجزئ بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح".⁷

2. ما اطرده الناس قديماً من التقاليد والسير والطرق: والمعنى الثاني لهذه الكلمة هي تلك التقاليد والسير والطرق التي سلكها الناس عبر العصور وهي أصبحت إما بمكان العلامة لكرامة الناس أو رذالة لهم كما قال سالم بن وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التخلق يأتي دونه الخلق⁸

¹ المصدر نفسه، 1013/2

² الحماسة البصرية، 49/1

³ سنن ابن ماجه: 3436

⁴ سنن ابن ماجه: 4182

⁵ مسند أحمد مخرجا: 17814

⁶ المصدر نفسه: 25183

⁷ المصدر نفسه: 25990

⁸ شرح ديوان الحماسة، 480/1

وقال زهير بن أبي سلمى:

وعَوَّدَ قَوْمَهُ هَرَمٌ عَلَيْهِ وَمِنْ عَادَاتِهِ الْخُلُقُ الْكَرِيمُ
كَمَا قَدْ كَانَ عَوْدَهُمْ أَبَوْهُ إِذَا أَزْمَتَهُمْ يَوْمًا أَزُومُ¹

وقال أبو صدقة الديبيري:

والمَرْءُ يُلْحِقُهُ بَفْتِيَانِ النَّدَى خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالْوَضَاءِ²
وقال أبو زيد الطائي:

إِنَّ الْكَرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ رَهْطُ امْرِئٍ خَارَهُ لِلدِّينِ مَخْتَارِ³
وقال أبو الأسود الدؤلي:

أَبْلَغُ أَبَا الْجَارُودِ عَنِي يَرُوحُ بِهَا الْغَادِي لِرَبْعِكَ أَوْ يَغْدُو
فِيخْبِرُنَا مَا بَالُ صِرْمِكَ بَعْدَمَا رَضِيتَ وَمَا غَيَّرْتَ مِنْ خُلُقٍ بَعْدُ
أَنَّ نَلْتَ خَيْرًا سَرَّيْنِي أَنْ تَنَالَهُ تَنَكَّرْتَ حَتَّى قَلْتُ ذُو لَبْدَةٍ وَرَدُ⁴
وقال كعب بن زهير:

أَلَا أَبْلَغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً عَلَى أَيِّ شَيْءٍ-وَيْبٍ غَيْرِكَ- ذَلِكَ
عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفِ أَمَّا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخَا لَكَ
سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَاسٍ رَوِيَّةٍ فَأَنْهَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَاكَ⁵

¹ ديوانه، ص 120

² لسان العرب: وضاً

³ المصدر نفسه: خار

⁴ ديوانه، 425/2

⁵ الأغاني، 374/12

⁶ المصدر نفسه، 91/17

وقال آخر:

رأيتُ معالمَ الخيراتِ سدّتْ دونها الطرقُ
فلا حسبُ ولا أدبُ ولا دينُ ولا خُلقُ¹

وقال الخطيئة:

ألا أبلغ بني عوف بن كعب
ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم
فلا وأبيك ما ظلمتُ قريعُ ولا يرموا لذك ولا أساءوا²

وقال جميل بن معمر العذري:

لحا الله من لا ينفع الودَّ عنده
ومن هو إن تحدّث له العينُ نظرةً
ومن هو ذو لونين ليس بدائمٍ على خُلقٍ خوآنٍ كلِّ أمينٍ³

وقال آخر:

هبتُ تلوم وتلحاني على خُلقٍ
قلت: رأيتُكِ متلافاً لما ملكتُ
قلت: اتركيني أبع مالي بمكرمة
إنا إذا ما أتينا فعلَ مكرمة

¹ البيان والتبيين، 388/1

² الحماسة البصرية، 77/1

³ شرح ديوان الحماسة، 119/1

⁴ الحماسة البصرية، 129/1

وقال آخر:

إذا القرشيّ لم يُشبهه قريشاً بفعلهم الذي بذّ الفعالا
فجرميّ له خُلقٌ جميلٌ لدى الأَقوام أحسنُ منه حالا¹

وقال آخر:

ذكرتُ امرئاً فرّ عن مَرَحٍ فرارَ الحمارِ من القصور
فأنكر ذاك جليسٌ لكم زنيماً أخو خُلُقٍ أعور
لحاني بحبِّ إمام الهدى وفاروق أمتنا الأكبر²

وقال بعض الفزاريين:

كذاك أدبْتُ حتى صار من خُلُقِي أني وجدتُ ملاكَ الشيمة الأدبا³
وقال أمية بن أبي الصلت:

خليلٌ لا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عن الخلقِ الجميلِ ولا مساء⁴
وقال خلف بن خليفة:

إلى معدنِ العزِّ المؤيّدِ والندى هناك هناك الفضلُ والخلقُ الجزلُ⁵
وأما كون الخلق طريقَ الصالحين فيقول عمرو بن الأهتم:

ذريني فإنّ الشيخَ يا أمَّ هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق
ذريني وحُطِّي في هواي فإنني على الحسبِ الزاكي الرفيع شفيق
ذريني فإنني ذو فعال تَهَمُّني نوابُ يغشى رُزؤُها وحقوق

¹ الأغاني، 166/14

² المصدر نفسه، 274-273/7

³ شرح ديوان الحماسة، 707/2

⁴ المصدر نفسه، 1040/2

⁵ المصدر نفسه، 1032/2

وكلُّ كريمٍ يتقي الدَّمَ بالقرى ولحق بين الصالحين طريق¹
وقال الثمري بعدما ذكر القرى:

بذلك أوصاني أبي وبمثله كذلك أوصاه قديماً أوائله²
وقال جابر بن حيان:

أهينُ لهم مالي وأعلمُ أنني سأورثه الأحياءَ سيرةً من قبلي³
وقال المتوكل الليثي:

لسنا وإن أحسبنا كُرمُت يوماً على الأحساب تتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا⁴
وقالت الخنساء:

تحسبه غضباناً من عرّه ذلك منه خُلُقٌ ما يحول⁵
وقال ابن ميادة:

حراميون لا يقرون ضيفاً ولا يدرون ما خُلُقُ الكرام⁶
فالطريق والسيرة والخلق كلمات متشابهة المعنى. ويروي عكرمة عن ابن عباس،
أنَّ جميلة بنت سلول، أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: وَاللَّهِ مَا أُعْتِبُ عَلَى ثَابِتٍ
فِي دِينٍ، وَلَا خُلُقٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، لَا أَطِيقُهُ بَغْضًا ---".⁷

¹ المصدر نفسه، 973/2-974

² المصدر نفسه، 998/2

³ المصدر نفسه، 1003/2

⁴ المصدر نفسه، 1034/2

⁵ المصدر نفسه، 1046/2

⁶ ديوانه، ص 223

⁷ سنن ابن ماجه: 2056

وأوردها القرآن الكريم لكلا المعنيين: لكونها مجرد عادة وكونها طريقة مطردة للناس. ففي سورة القلم أوردها للمعنى الأول بينما أوردها في سورة الشعراء للمعنى الثاني.

موقع استخدامها في القرآن الكريم وبلاغته: وقبل أن أنهي هذا الحديث يناسبني أن أشير إلى موقع استخدامها في القرآن الكريم وبلاغته.

ففي سورة الشعراء التي تبعت سورة الفرقان تم فيها إثبات رسالة النبي الكريم ونزول القرآن من الله جلّ جلاله فلا فرق بينهما في الموضوع سوى الاستدلال والأسلوب، وما أجمال في سورة الفرقان من قصص الأنبياء والرسل قد فصلت في هذه السورة، وكذا ردّ فيها على اتهام قريش النبيّ الكريم بأنه مجنون وكاهن. ويشير تكرار "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾" إلى أنّ من طلب من الرسل آيات قد كذبوهم ولقوا عذاب الله القاهر الديان ولذا فليعتبر الناس ولا يسألوا هذا الرسول الكريم ما سأل أشباههم من السلف. والأنبياء والرسل الذين ذكرت قصصهم في هذه السورة بعد المدخل هم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام فالفقرة التي وردت فيها هذه الكلمة تأتي في قصة لوط التي تبتدئ من الآية 123 وتنتهي على الآية 140 وهي كما يلي:

"كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٨﴾ أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ إِذَا تَعَبَثَتْ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٠﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَمْرِ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ إِنْ أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٨﴾".

فبعدما أيقنهم أنه ناصح أمين لهم وذلك أنه لا يطلب منهم أي أجر انتقدهم وذكر ما هم يرتكبون كما ذكر ما أعطاهم الله من النعم من البنين والحدائق فلم يسمعو لنصحه بل كذبوه زاعمين أنما يمارسه الرسول معهم من طريقة النصح والتهديد ليست إلا طريقة بالية غير مؤثرة للنصح والتهديد اتخذها أمثاله من الرسل فلم يأتهم العذاب في الماضي فكيف يأتهم اليوم، ولكنهم أحاط بهم العذاب وأصبحوا عبرة للمتأخرين من أشياعهم.

فكلام "إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٩﴾" يدل على أن طريقة نصح وتهديد هود ليست سوى أنها تشبه طريقة من تقدمه من الناصحين والمهتدين من الأنبياء والرسل وأنها لا تطوي بين جنبها شيئاً مما يدعيه هذا الرسول فكأنها نوع من الاختلاق فرأي علقمة "اختلاق الأولين" أو قول ابن عباس "أساطير الأولين" يشير إلى هذا ويؤيده القرآن فقد جاء في سورة النمل:

"لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾". (سورة النمل)

وكذا قراءة أبي عمرو بن العلاء "خُلُقُ الأولين" ليست سوى تفسير. وأما رأي قتادة "خِلقة الأولين" فيشير إلى معنى لا يؤيده نظم القرآن ولو يدل عليه معنى الكلمة. وأما من قال إنه "دين الأولين وعاداتهم" فله نظير في القرآن كما جاء في سورة البقرة:

"قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧١﴾".

وجاء في سورة المائدة:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٢﴾". (سورة المائدة)

وجاء في سورة لقمان:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُو كَان الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" (سورة لقمان)

ولكن لا يؤيده نظم القرآن وسياق الآيات. وأما مَنْ قال إنه "دين الأولين" فلا يصح فإنَّ الخلق مختلف عن الدين كما قال مسكين الدارمي:

حسبك من تحصينها ضمها منك إلى خلقٍ كريمٍ ودين¹
وقال الشاعر:

تولّت	بهجة	الدنيا	فكلّ	جديدها	خلق
وخان	الناس	كلّهم	فما	أدري	أثق
رأيتُ	معالم	الخيرات	سدّت	دونها	الطرق
فلا	حسب	ولا	أدب	ولا	دين
				ولا	خلق ²

وقال أبو زيد الطائي:

إنّ الكرام على ما كان من خلقٍ رهطُ امرئٍ خارهِ للدين مختار³
وكما جاء في الحديث: "أنّ جميلة بنت سلول، أتت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: وَالله ما أعتبُ على ثابتٍ في دينٍ، ولا خلقٍ، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضاً ---".⁴
أوهو على الأقل جزء منه كما قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنّ لكلّ دينٍ خلقاً، وإنّ خلق الإسلام الحياء".⁵

¹ ديوانه، ص 67

² البيان والتبيين، 388/1

³ لسان العرب: خار

⁴ سنن ابن ماجه: 2056

⁵ المصدر نفسه: 4182

وأما سورة القلم التي ذكرت فيها هذه الكلمة فهي توأم سورة الملك وهي تشتمل على إنذار قريش بالعذاب والقيامة ولا فرق بينهما سوى الأسلوب والاستدلال.

انتهت السورة السابقة على لسان النبي الأُمِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يلي:

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِتًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾". (سورة الملك)

وهذه السورة شرح لذلك ففي بداية السورة ذكرت دعوة الرسول وكتابه وخلقه العالي وقورنت هذه كلها من رؤساء وكبراء قريش ثم ذكر أنّ من أعطاهم هذه كلها يقدر على أن يسلبهموها ثم انتهت السورة على ترديد زعمهم أنما أعطوا في هذه الدنيا من النعم سيعطون أمثالها في الآخرة، والسؤال عن عدل الرب تعالى، والعزاء للرسول الكريم.

ولا شك أنّ القرآن قد استدل في غير موضع منه بالخلق العالي من نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كغيره من الرسل^١) على أنما يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يدعو إليه صحيح حق يدلّ عليه خلقه السامي لأنه لم يكذب في حياته ولا اختار سبيلاً باطلاً ولا قال شيئاً يشوبه مسّ من الجن. ونذكر فيما يلي مثلاً من سورة النجم التي تبتدئ بما يلي من الآيات:

^١ كما قال الله تعالى: "وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤١﴾" (سورة الأعراف) وقال أيضاً: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوهُمْ لِلْحَقِّ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾" (سورة المؤمنون) وقال أيضاً: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذْلُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مِرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَتَزَيَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جَنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٤٦﴾" (سورة سبأ) وجاء في نفس السورة: "قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَدَيٌّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٧﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٨﴾".

"وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ" (سورة النجم)
فقول "صَاحِبُكُمْ" يشير إلى شخصية الرسول الذي عاش بين ظهرانيهم فلم يشهدوا
بالضلال ولا بالغواية ولا بالكذب. وكذا جاء في سورة التكويد حيث قال تعالى:
"وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۚ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۚ"
(سورة التكويد)

ولقد شهد بسيرته هذه أعداؤه فقال النضر بن الحارث:

"قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة".¹
وقد صدق أبو سفيان بصداقته.²

¹ تاريخ دول العرب والإسلام، 216/1

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الحماسة لأبي عبادَةَ الوليد بن البحتري، تحقيق: د. محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2007م
3. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكّري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
4. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
5. ديوان الخطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م
6. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
7. ديوان الرماح ابن ميّادة، جمع وتحقيق: د. حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1982م
8. ديوان العجاج، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م
9. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
10. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، 1996م
11. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
12. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
13. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
14. ديوان ذي الإصبع العدواني، جمع وتحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدُّيبي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1973م

15. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
16. ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997م
17. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت.
18. ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصرى، بغداد، ط: 1، 1970م
19. شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تعليق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2003م
20. شرح ديوان الحماسة للعلامة التبريزي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى
21. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط 2، 1985م
22. شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1985م
23. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.